الباب الثاني

نَقدُ قَضيَّةِ المعَارضِين

عرضنا في الباب الأول قضية المعارضين، الذين يزعمون أنه لا داعي لأن يبقى الدين في عصرنا الحاضر. والحقيقة أن هذه القضية لا تقوم على أساس، ولسوف نتناول في الأبواب الآتية، أفكارَ الدين الأساسية، واحدة واحدة، لننظر في مدى حقيقتها، كما كانت قبل العصر الحديث.

وإليكم نقداً عاماً لقضية المعارضين:

أولاً: حقيقة الطبيعة:

لنتكلم أولاً في الدليل الذي يعرض باسم البيولوجيا، وهو أن الحوادث تحدث طبقاً (لقانون الطبيعة)، فلا حاجة لأن نفترض لهذه الحوادث إلهاً مجهولاً. إن أحسن ما قيل في هذا الصدد ما قاله عالم مسيحي:

«nature is a fact, not an explanation».

«إن الطبيعة حقيقة (من حقائق الكون) وليست تفسيراً (له)» لأن ما كشفتم ليس بياناً لأسباب وجود الدين، فالدين يبيِّن لنا الأسباب والدوافع الحقيقية التي تدور «وراء الكون»، وما كشفتموه هو الهيكل الظاهر للكون. إن العلم الحديث تفصيل لما يحدث، وليس بتفسير لهذا الأمر الواقع، فكل مضمون العلم هو إجابة عن السؤال: «ما هذا؟»، وليس لديه إجابة عن السؤال: «ولكن لماذا؟». وإن التفسير الذي نحن بصدده هنا يتعلق بالأمر الثاني.

❖ ❖ ❖

لنفهم هذا من مثال بسيط. فالكتكوت يعيش أيامه الأولى، داخل قشرة البيضة القوية، ويخرج منها بعد ما تنكسر مُضْغَةَ لحم، كان الإنسان القديم يؤمن بأن الله أخرجه. ولكنا شاهدنا اليوم بالمنظار أنه في اليوم الحادي والعشرين يظهر قرن صغير على منقار الكتكوت، يستعمله في تكسير البيضة، لينطلق خارجاً منها، ثم يزول هذا القرن بعد بضعة أيام من خروجه من البيضة.

هذه المشاهدة، كما يزعم المعارضون، أبطلت الفكرة القديمة القائلة: بأن الإله يخرج الكتكوت من البيضة؛ إذ قد رأينا يقيناً أن قانوناً لواحد وعشرين يوماً يحدث هذه العملية. والحقيقة أن المشاهدة الجديدة لا تدلنا إلاَّ على حلقات جديدة للحادث، ولا تكشف عن سببه الحقيقي، فقد تغيَّر الوضع الآن فأصبح السؤال لا عن تكسّر البيضة، بل عن (القرن)؟. إن السبب الحقيقي سوف يتجلّى لأعيننا حين نبحث عن العلة التي جاءت بهذا القرن؛ العلة التي كانت على معرفة كاملة بأن الكتكوت سوف يحتاج إلى هذا القرن ليخرج من البيضة، فنحن لا نستطيع أن نعتبر الوضع الأخير (وهو مشاهدتنا بالمنظار) إلا أنه «مشاهدة للواقع على نطاق أوسع»، ولكنه ليس تفسيراً له.

❖ ❖ ❖

يقول البروفيسور (سيسيل بايس هامان)، وهو أستاذ أمريكي في البيولوجيا:

«كانت العملية المدهشة في صيرورة الغذاء جزءاً من البدن تنسب من قبل إلى الإله، فأصبحت اليوم بالمشاهدة الجديدة تفاعلاً كيماويّاً، هل أبطل هذا وجود الإله؟ فما القوة التي أخضعت العناصر الكيماوية لتصبح تفاعلاً مفيداً؟... إن الغذاء بعد دخوله في الجسم الإنساني يمر بمراحل كثيرة خلال نظام ذاتي، ومن المستحيل أن يتحقق وجود هذا النظام المدهش باتفاق محض. فقد صار حتماً علينا بعد هذه المشاهدات أن نؤمن بأن الله يعمل بقوانينه العظمى التي خلق بها الحياة!»[1].

---

(1) The Evidence of God In an Expanding universe, p.221.

كان الإنسان القديم يعرف أن السماء تمطر، لكننا اليوم نعرف كل شيء عن عملية تبخر الماء في البحر، حتى نزول قطرات الماء على الأرض، وكل هذه المشاهدات صور للوقائع، وليست في ذاتها تفسيراً لها، فالعلم لا يكشف لنا كيف صارت هذه الوقائع قوانين؟... وكيف قامت بين الأرض والسماء على هذه الصورة المفيدة المدهشة، حتى إن العلماء يستنبطون منها قوانين علمية؟ والحقيقة أن ادعاء الإنسان بعد كشفه لنظام الطبيعة أنه قد كشف تفسير الكون ـ ليس سوى خدعة لنفسه، فإنه قد وضع بهذا الادعاء حلقة من وسط السلسلة مكان الحلقة الأخيرة.

ويضيف العالم الأمريكي سيسيل قائلاً:

«nature does not explain, she is herself in need of an explanation».

«إن الطبيعة لا تفسِّر شيئاً (من الكون)، وإنما هي نفسها بحاجة إلى تفسير».

فلو أنك سألت طبيباً: ما السبب وراء احمرار الدم؟

لأجاب: لأن في الدم خلايا حمراء، حجم كل خلية منها1 ـ 700 من البوصة!.

ـ حسناً، ولكن لماذا تكون هذه الخلايا حمراء؟

ـ في هذه الخلايا مادة تسمَّى (الهيموجلوبين) وهي مادة تحدث لها الحمرة حين تختلط بالأوكسجين في القلب.

ـ هذا جميل. ولكن من أين تأتي هذا الخلايا التي تحمل الهيموجلوبين؟

ـ إنها تصنع في كبدك.

ـ عجيب! ولكن كيف ترتبط هذه الأشياء الكثيرة من الدم والخلايا والكبد وغيرها، بعضها ببعض، ارتباطاً كلياً، وتسير نحو أداء واجبها المطلوب بهذه الدقة الفائقة؟.

ـ هذا ما نسميه بقانون الطبيعة.

ـ ولكن ما المراد بقانون الطبيعة هذا، يا سيدي الطبيب؟

ـ المراد بهذا القانون هو الحركات الداخلية العمياء للقوى الطبيعية والكيماوية.

ـ ولكن لماذا تهدف هذه القوى دائماً إلى نتيجة معلومة؟ وكيف تنظِّم نشاطها، حتى تطير الطيور في الهواء، ويعيش السمك في الماء، ويوجد إنسان في الدنيا، بجميع ما لديه من الإمكانات والكفاءات العجيبة المثيرة؟

ـ لا تسألني عن هذا، فإن علمي لا يتكلم إلا عن: (ما يحدث)، وليس له أن يجيب: (لماذا يحدث؟).

يتضح من هذه الأسئلة مدى صلاحية العلم الحديث لشرح العلل والأسباب وراء هذا الكون. ولا شك أنه قد أبان لنا عن كثير من الأشياء التي لم نكن على معرفة بها، ولكن الدين جواب لسؤال آخر، لا يتعلق بهذه الكشوف الحديثة العلمية، فلو أن هذه الكشوف زادت مليون ضعف عنها اليوم فسوف تبقى الإنسانية بحاجة إلى الدين؛ إن جميع هذه الكشوف «حلقات ثمينة من السلسلة»، ولكن ما يحل محلَّ الدين لابد أن يشرح الكون شرحاً كلياً وكاملاً. فما الكون على حاله هذه إلا كمثل ماكينة تدور تحت غطائها، لا نعلم عنها إلاَّ أنها (تدور)، ولكنا لو فتحنا غطاءها فسوف نشاهد كيف ترتبط هذه الماكينة بدوائر وتروس كثيرة، يدور بعضها ببعض، نشاهد حركتها كلها. هل معنى هذا أننا قد علمنا خالق هذه الماكينة بمجرد مشاهدتنا لما يدور داخلها؟ هل يفهم منطقياً أن مشاهدتنا هذه أثبتت أن الماكينة جاءت من تلقاء ذاتها، وتقوم بدورها ذاتياً؟ لو لم يكن هذا الاستدلال منطقياً فكيف إذن نثبت بعد مشاهدة بعض عمليات الكون ـ أنه جاء تلقائياً، ويتحرك ذاتياً؟....

لقد استغل البروفيسور هريز (A. Harris) هذا الاستدلال حين نقد فكرة داروين عن النشوء والارتقاء، فقال:

«إن الاستدلال بقانون الانتخاب الطبيعي يفسِّر عملية(بقاء الأصلح)، ولكنه لا يستطيع أن يفسر حدوث هذا الأصلح»[1].

❖ ❖ ❖

ثانياً: اللاشعور ودليل علم النفس:

(1) Revolt Against. A. Lonn. P. 133.

لنعالج الآن الدليل الذي يقدمه علم النفس والقائل بأن الإله والآخرة قياس للشخصية الإنسانية وأمانيها على مستوى الكون. ولست بمستطيع أن أدرك نقطة الاستدلال في هذا الدليل. ولو أنني ادعيت - بدوري - أن الشخصية الإنسانية وأمانيها موجودة فعلاً على مستوى الكون فلست أدري ما عسى أن يبطل ادعائي هذا من منطق المعارضين؟!

❖ ❖ ❖

نحن نعرف أن مادة (الجنين) التي لا تشاهد إلا بالمنظار تنبئ في ذاتها عن إنسان طوله 72بوصة، وأن (الذرة) التي لا تقبلُ المشاهدة تحتوي نظاماً رياضياً كونيّاً يدور على وَفقِهِ النظامُ الشمسي، فلا عجب إذن أن يكون النظام الذي نشاهده على مستوى الإنسان في الجنين، وعلى مستوى النظام الشمسي في الذرة، موجوداً أيضاً، وبصورة أكمل، على مستوى الكون. إن ضمير الإنسان وفطرته ينشدان عالماً متطوراً كاملاً، فلو كان هذا الأمل صدىً لعالم حقيقي فلست أرى في ذلك أي ضرب من ضروب الاستحالة!!

❖ ❖ ❖

لا شك في قول العلماء: إن الذهن الإنساني يحتفظ بأفكار قد تظهر فيما بعد في صورة غير عادية. ولكن سوف يكون قياساً مع الفارق أن نعتمد على هذه الفكرة كي نبطل الدين. فهو قياس في غير محله، وهو يعتبر استدلالاً غير عادي من واقع عادي. فهو أشبه بمن يشاهد مثّالاً يصنع صنماً فيصرخ: هذا هو الذي قام بعملية خلق الإنسان.

ومن معايب الفكر الحديث أنه يستنبط من حادث عادي دليلاً غير عادي؛ فهذا الدليل لا وزن له من الناحية المنطقية، ولو افترضنا أن رجلاً يسير في شارع أخذ يهذي بكلام غريب نتيجة لأفكار مختزنة في ذهنه، فهل يمكن أن نستغل هذا الحادث في البحث في كلام الأنبياء، وهو الكلام الذي يكشف سرّ هذا الكون...؟؟؟... سوف يكون هذا الاستدلال غير علمي، وغير منطقي ولسوف يدل على أن صاحبه يفتقر

إلى القيم حتى يستطيع التفرقة بين كلام رجل الشارع وكلام الأنبياء، فلا يدعي أن هذا الهذيان هو المسؤول عما جاء به الدين.

فالقيم تتغير ذاتياً بتغير الأوضاع، ومن الخطأ الظن بأنها لا توجد إلا عند أصحاب الفكر الحديث.

ولنتخيّل أن رهطاً من سكان بعض النجوم هبط منها إلى الأرض، وهم يسمعون، ولكنهم لا يقدرون على الكلام، ولنتصور أنهم ذاهبون يبحثون عن الأسباب المؤدية إلى تكلم الإنسان، وبينما هم في طريقهم إلى هذا البحث هبت الرياح، واحتك غصنان، أحدهما مع الآخر، فنتج صوت، وتكررت العملية غير مرة حتى توقفت الرياح، وإذا بهم يعلنُ كبيرهم: لقد عرفنا سر كلام الإنسان، وهو أن فمه يحتوي على فكين من الأسنان، فإذا احتكّ الفكُّ الأعلى بالأسفل صوّت! ولا شكَّ أنه إذا احتكَّ شيء بالآخر يحدث صوتاً، ولكن هذا الواقع لا يكشف عن سر الكلام الإنساني، كما لا يصحّ تفسير أسرار النبوة بكلام غريب ـ كهذيان رجل الشارع، في حال الجنون أو الهستيريا.

ب ـ واللاشعور الإنساني ـ من الوجهة العلمية ـ فراغ في أصله، لا شيء فيه قبل مولد الإنسان، و إنما يستقر فيه عن طريق الشعور ما يشغله الآن، لأن (اللاشعور) ليس سوى مخزن للمعلومات و المشاهدات التي شاهدها الإنسان في حياته، ولو مرة، ومن المستحيل أن يختزن حقائق لم يعلمها من قبل. والذي يثير الدهشة أن الدين الذي جاء على لسان الأنبياء يشتمل على حقائق أبدية لم تخطر على بال أحد من الناس في أي زمان، فلو كان اللاشعور هو مخزن هذه المعلومات، فمن أين يأتي بها هؤلاء الذين يتكلمون عن أشياء لا طريق لهم إلى العلم بها ؟

إن الدين الذي جاء به الأنبياء يتصل من ناحية أو أخرى بجميع العلوم المعاصرة ـ الطبيعة، و الفلك، و علم الحياة، وعلم الإنسان، وعلم النفس، والتاريخ والحضارة و السياسة و الاجتماع و غيرها من العلوم، وكل حديث في التاريخ الإنساني مصدره (الشعور)، فضلاً عن اللاشعور، لا يخلو من الأغلاط و الأكاذيب و الأدلة الباطلة. أما الكلام النبوي فإنه بريء ولا شك من كل هذه العيوب، رغم

اتصاله بجميع العلوم ، ولقد مرت قرون إثر قرون ، أبطل فيها الآخرون ما ادعاه الأولون وما زال صدق كلام النبوة باقياً على الزمان ، ولم يستطع أحد أن يدل على باطل جاء به ، وكل من حاول ذلك أخفق .

وإليكم مثالاً من هذا القبيل اعتمد عليه فلكي كبير ، حتى ادّعى أنه كشف غلطة علمية في القرآن الكريم.

يقول(جيمز هنري بريستد) :

«لقد راج التقويم القمري في الدنيا لكثرة تداوله في غرب آسيا ، ولغلبة الإسلام سياسياً بوجه خاص. ولقد مضى محمد (ﷺ) بالاختلاف بين التقويم القمري والشمسي إلى أقصى حد من العبث يمكن تصوره ، حتى إنه أبطل إضافة الشهور الكبيسة (Intercalary months) . إن السنة القمرية المزعومة تشتمل على 354 يوماً ، وتقل أحد عشر يوماً عن السنة الشمسية. وهكذا تزيد السنة القمرية سنة واحدة كل 33 سنة ، وثلاث سنين في كل قرن. فلو حلَّ رمضان في يونيو هذه السنة فسوف يحل بعد ست سنين في إبريل» .

«لقد مضى 1313عاماً منذ[1] الهجرة ، حيث إن قرننا (الميلادي) هو بمثابة مائة سنة و ثلاث سنين في تقويم المسلمين ، وقد سجل تقويمهم واحداً وأربعين عاماً زائداً في هذه المدة من قرننا.وقد ألغت كنيسة اليهود الشرقية هذه السخافة واختارت طريقة إضافة الشهور(Intercalation) لتجعل تقويمها مثل التقويم الشمسي ، وهذا هو السبب في أنَّ غرب آسيا يعاني حتى الآن لعنة هذه الطريقة القديمة – التقويم القمري»[2] .

لسنا هنا بصدد مناقشة الفرق بين التقويم القمري والشمسي ، ولكن لا بد من توضيح أن ما نسبه المؤلف إلى رسول الإسلام هو في الحقيقة غفلة شديدة ترجع إلى المؤلف نفسه ، ولم يمنع القرآن الكريم إضافة (الشهور الكبيسة) ، وإنما حرم النسيء (التوبة : 38) ، ومعناه في اللغة : (التأخير) ، ومنه : (نسأ الدابة) عن الحوض لكي تشرب الأخرى ، ومعناه في الاصطلاح : (تأخير شهر و تقديم شهر آخر عليه) .

---

(1) كان ذلك عام 1935م.

(2) Time and its Mysteries, New York, 1962, P. 56.

لقد كان من بين العادات الكريمة التي دعا إليها إبراهيم عليه السلام العرب تحريم أربعة أشهر لا قتال فيها ولا جدال، وهي : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم، ورجب ، وقد كان العرب يسافرون في هذه الأشهر بكل حرية ، لكي يؤدوا فريضة الحج و العمرة. وحين دب الفساد في بعض القبائل، اخترعوا بدعة (النسيء)، وهي أن يضعوا شهراً غير حرام محل الشهر الحرام، كأن يجعلوا صفر في مكان المحرم، وذلك لكي يحاربوا قبيلة يلزم قتالها في الشهر الحرام. وهذه هي البدعة المقيتة التي وصفها القرآن الكريم بأنها : (زيادة في الكفر).

وقال العلماء : إن الشهور الكبيسة كانت رائجة في العرب، و كانوا يضيفون عدد الشهور في السنة للتقويم.

وقال مفسر للقرآن الكريم في هذا الموضوع، وهو مولانا شبير أحمد العثماني في تفسيره :

«إنَّ بعض القبائل تضيف الشهور الكبيسة كل ثلاثة أعوام ليستقيم التقويم القمري، ولا يدخل هذا العمل في النسيء».

إن ما قاله رسول الإسلام ﷺ في عهد الظلام لم يكن من الجهالة، ولا يدخل قطعاً في نطاق ما أورده (جيمز هنري بريستد) طعناً عليه. ولو كان كلامه ﷺ صادراً عن الشعور أو اللاشعور لوقعت فيه أخطاء، ما من ذلك بد.

❖ ❖ ❖

ثالثاً: الاستدلال بالتاريخ والاجتماع:

إن الذين يستدلون بالتاريخ أو الاجتماع خطأهم الأساسي أنهم لا يدرسون الدين من وجه صحيح، ولهذا يبدو شيئاً غريباً. ومثال ذلك أن ترى شيئاً مربعاً من زاوية منحرفة فيتراءى لك مثلثاً. إن الخطأ الذي يقعون فيه هو أنهم يتناولون الدين على أنه «مشكلة موضوعية Objective Problem»، فهم يجمعون في سلة واحدة كل ما أطلق عليه اسم (الدين)، من رطب ويابس، في أي مرحلة من التاريخ، ثم يتأملون في ضوء هذا المحصول حقيقة الدين!! إن موقفهم ينحرف من أولى مراحله، فيبدو لهم

الدين ـ جراء هذا الموقف الفاسد ـ عملاً اجتماعياً، لا كشفاً لحقيقة. ومن المعلوم أن لكل ما يكشف عن حقيقة من الحقائق مثلاً أعلى، ولا بد عند البحث عن هذه الحقائق أن ندرس مظاهرها وتاريخها في ضوء مثله الأعلى. أما الأمور التي تأتي بها أعمال اجتماعية فليس لها مثل أعلى، وبقاؤها رهن بحاجة المجتمع إليها، والدين يختلف عن ذلك كل الاختلاف، فليس من الممكن البحث عن حقائقه، كما يبحث عن تطورات فنون العمارة والنسيج والحياكة والسيارات، لأن الدين علم على حقيقة يقبلها المجتمع أو يرفضها، أو يقبلها في شكل ناقص. ويبقى الدين في جميع هذه الأحوال حقيقةً واحدةً في ذاتها، وإنما يختلف في أشكاله المقبولة. ولهذا لا يمكن أن نفهم حقائق (الدين) بمجرد فهرسة مماثلة لجميع الأشكال الموجودة في المجتمعات باسم الدين. ولنأخذ ـ على سبيل المثال ـ لفظ (الجمهورية)، فهي قيمة سياسية لنظام خاص بالحكم، وفي ضوء هذه القيمة نستطيع أن نحكم على بلاد بأنها جمهورية، أو بأنها ليست كذلك. لكنا لو ذهبنا نبحث عن معاني (الجمهورية) في النماذج السياسية التي توجد عبر القارات، ويلتصق بها لفظ (الجمهورية)، ثم زعمنا أن كل هذه البلاد قائمة على (أسس جمهورية)، فسوف تصبح كلمة «الجمهورية» بلا معنى. ففي هذه الحالة ستختلف (جمهورية) الصين عن (جمهورية) الولايات المتحدة الأمريكية، وستعارض (جمهورية) إنجلترا (الجمهورية) العربية المتحدة، كما أن (جمهورية باكستان ستصطدم (بالجمهورية) التي تلتزم بها الهند. فإذا تأملنا كل هذه المشاهدات في ضوء (فلسفة التطور) فإن هذه الكلمة سوف تبرهن على أن (الجمهورية) بعد (نشوئها وارتقائها) تتمثل في ديكتاتورية ديجول العسكرية.

وهذا النهج في التناول يؤدي إلى نتيجة غريبة، هي أنه لا حاجة إلى (الإله) في الأديان!! إذ يوجد مثال لهذا في تاريخ الأديان وهو مثال البوذية، التي تخلو تماماً من فكرة (الإله)، ومن ثم آمنت جماعة من الناس بضرورة البحث عن دين مجرد من الإله. ولو أننا سلمنا بالفكرة القائلة بأن شيئاً مثل (الدين) لابد منه للإنسان، لحاجته إلى الوعي الخلقي والتنظيم الاجتماعي، فلا داعي إذن للإله أن يوجد، وربما قيل: «إن الدين الذي يصح لهذا العصر يلزم أن يكون مثل البوذية، فإن إله العصر الحاضر

هو ـ (مجتمعه وأهدافه السياسية)، ورسول هذا الإله هو (البرلمان) الذي يوجه الشعب إلى ما يرضيه، ومعابد هذا الإله العصري ليست المساجد أو الكنائس القديمة، وإنما هي المصانع الكبيرة والسدود العظيمة»[1].

إن لهؤلاء الباحثين الاجتماعيين المزعومين قدرة كبيرة على خلق هذه الأفكار الجديدة، التي تنتقل من (دين الإله) إلى فكرة (الدين بغير الإله)، وذلك ناشئ عن الطريق المعوجة التي سلكها بحثهم، وهم يغمضون أعينهم عن جميع النواحي العلمية الأخرى التي تلقى ظلالاً من الشكوك حول جداولهم الارتقائية. ومثاله أن علماء الاجتماع والإنسان قد توصلوا بعد أبحاثهم الفنية الدقيقة إلى أن (نظرية الإله) شكل ارتقائي لفكرة تعدد الآلهة، غير أن هذا الارتقاء ضل طريقه واتجه إلى طريقة غريبة، وحير العلماء كما شوش أمره على نفسه، بارتقائه الباطل من فكرة تعدد الآلهة إلى فكرة الإله الواحد.

إن فكرة تعدد الآلهة كانت قيماً اجتماعية مؤداها أن يعيش مؤمنو الآلهة المختلفة في سلام باعتراف متبادل ما بينهم، ولكن فكرة الإله الواحد أبطلت حتماً هذا الإمكان، بخلقها نظرية الدين الأعلى(Higher Religion)، ونتيجتها أن بدأت حروب ضارية لا نهاية لها بين شعوب الدنيا، وهكذا سعت فكرة الإله الواحد إلى حتفها بظلفها، بارتقائها في اتجاه مناقض، وهذا هو قانون النشوء والارتقاء[2].

ولكننا ـ فعلاً ـ قد تركنا الواقع الحقيقي في هذا الجدول، فالتاريخ المعلوم يثبت أن أول رسول معلوم كان سيدنا نوحاً عليه السلام، وكان يدعو إلى الله الواحد. كما أن تعدد الآلهة(Polytheism) ليس في درجة واحدة، وإنما معناه: أن يشرك الإنسان مع الإله الأكبر آلهة آخرين يقربونه إليه، ويشفعون له. وفي وجود هذه الحقائق تتحول نظرية النشوء والارتقاء إلى ادعاء لا دليل عليه.

❖ ❖ ❖

---

(1) Religion Without Revelation, Julian Huxley.

(2) Man in the modern World, P.112.

وفكرة (ماركس) هي أكثر نظريات هذه المجموعة عبثاً، فهي تقول: إن الأحوال الاجتماعية هي التي تقوم ببناء الإنسانية وتكميلها، ومن ثم كان العصر الذي وجد فيه الدين عصر الإقطاع والرأسمالية، وهو عصر الانتهازيين اللصوص، كما أن الأفكار الدينية والأخلاقية التي تولدت في هذا العصر تحمل الطابع الانتهازي الاستعماري نفسه. . والحق أن هذه الفكرة ليست لها قيمة من الناحية العلمية، كما أنها عند التحليل العلمي و التجربة العملية لا طريق إلى تصديقها.

فالفكرة الماركسية تنفي بشدة إرادة الإنسان، وهي تحيل الأحداث إلى تأثير عوامل الزمن الاقتصادية، ومعنى ذلك أن الإنسان لا شخصية له، فهو يصاغ في مجتمعه، كما يصاغ الصابون في المصنع، ولا طريق أمامه كي يشق أفكاراً وطرقاً جديدة، وإنما هو ينطلق مفكراً على النهج الذي سمحت له به حياته الاقتصادية، فإذا كانت هذه القضية صحيحة، فكيف تمكن كارل ماكس ـ وليد النظام الرأسمالي ـ من أن يفكر ضد العوامل الاقتصادية الرائجة في عصره، هل صعد القمر لكي يبحث في أحوال الأرض؟

وبعبارة أخرى: لو صح أن الدين وليد عصر مخصوص فكيف لم تكن الماركسية وليدة النظام الاقتصادي لعصرها؟؟. . وإذا لم نسغ هذا الوضع فيما يتعلق بالماركسية فكيف نسيغه بالنسبة إلى الدين؟. . الحق أن هذه الفكرة عبث مثير لا يحمل على ظهره أي دليل علمي أو عقلي.

هذا وقد اتضحت أخطاء هذه الفكرة بالتجارب العملية، وحسبنا روسيا، هنالك حيث سادت الماركسية نصف قرن من الزمان، ادعت روسيا خلاله أن أحوال البلاد المادية قد تغيرت تماماً، وأن النظام الزراعي، والمبادلة، وتقسيم الأموال، قد جرت على أسس غير استغلالية، ولكنا وجدنا حين مات ستالين أن قادة الروس أنفسهم قد أقروا بأن الظلم والفساد كانا رائجين في عهده، وأنه كان يستغل الشعب كما يستغله الحكام في البلاد الاستعمارية. ولو وضعنا في اعتبارنا واقع الرقابة الشديدة على الصحف ووسائل الإعلام، وهي التي تمكن بها ستالين من أن يذيع على العالم أن عهده هو عهد الإنصاف، فلا ريب أن هذه الرقابة موجودة هناك اليوم أيضاً.

ومن هنا نستطيع أن نفهم أن الأمور تجري وراء ستائر الدعاية الجميلة على ما كانت عليه في عهد ستالين. وإذا كان المؤتمر العشرون (1956) للحزب الشيوعي الروسي قد أفشى مظالم ستالين، فلا غرابة أن يجيء المؤتمر الأربعون للحزب الشيوعي بإفشاء أسرار حكام روسيا اليوم[1].

إن هذا النظام الذي استغرقت تجربته نصف قرن من الزمان ليدلنا على أن الإنسان لا يتغير بتغيير نظام الزراعة والمبادلة المزعوم، ولو كان العقل الإنساني تابعاً للنظام الاقتصادي فلماذا نجد الظلم والفساد والاستغلال في نظام روسيا الشيوعي؟

❖ ❖ ❖

إن قضية العصر الحاضر لا تعدو أن تكون «سفسطة علميةScientific Sophism.» ذلك أن علماء هذا العصر يعالجون قضاياهم في ضوء العلم الحديث، غير أن المعالجة لا تجدي نفعاً لأنها قائمة على العلم المحض وحسب، على حين لابد من اعتبار أشياء أخرى، ومثال ذلك: أن نشرع في دراسة علمية لأشياء علمية ناقصة، فسوف تؤدي هذه المطالعة العلمية إلى نتائج غير علمية، ناقصة، باطلة

❖ ❖ ❖

لقد عقد في دلهي في يناير 1964 مؤتمر دولي للمستشرقين، اشترك فيه ألف ومائتان من العلماء من جميع أنحاء العالم. وقدم أحدهم في هذا المؤتمر بحثاً يدَّعي فيه أن مآثر كثيرة لمسلمي الهند ليست من عمل المسلمين، وإنما هي من عمل الملوك الهندوس. وضرب لذلك مثلاً بمنارة قطب في دلهي، المنسوبة إلى الملك قطب الدين آيبك، على حين بناها الملك الهندوسي سامودرا جوبت قبل 23 قرناً. وقد أخطأ المؤرخون المسلمون فنسبوها إلى الملك قطب الدين. ويستدل هذا البحث بأن المنارة المذكورة بعض أحجار قديمة نحتت قبل عصر قطب الدين.

وهذا - كما يبدو - استدلال علمي. إذ إن بعض أحجار المنارة هي حقاً من الصنف الذي ذكره العالم، ولكن هل يكفي مشاهدة بعض أحجار المنارة للبت في أمر

---

(1) وقد أكد هذا عزل خروشوف والحوادث التي تلته في روسيا في أكتوبر عام 1964 م.

بانيها؟ أو أنه لابد من نواح أخرى كثيرة لنشاهدها في هذا الصدد. ومن هنا فإن هذا التفسير لا يصدق على منارة قطب ـ ككل. هذا تفسير. وهناك تفسير آخر، هو أن هذه الأحجار القديمة التي يوجد بعضها في المنارة، إنما جاءت من أنقاض أبنية قديمة، كما هو معروف في كثير من الأبنية التاريخية الحجرية. ولا مناص من أن نقبل هذا التفسير الثاني حين نشاهد منارة قطب الدين، في ضوء طابعها المعماري ورسومها وتصميمها، والمسجد الناقص بجوارها، والمنارة الثانية التي لم تكمل، ثم ننتهي إلى أن التفسير الأول ليس إلا قياساً خاطئاً قائماً على المغالطات.

❖ ❖ ❖

وهذا هو أمر قضية المعارضين. فإنهم نظروا إلى حقائق ناقصة وجزئية، لا يتصل بعضها بالموضوع مطلقاً، واعتقدوا أن الدراسة العلمية الحديثة قد أبطلت الدين، على حين أننا لو نظرنا إلى الواقع جملة وتفصيلاً فسوف نصل إلى نتيجة تختلف عن الأول كل الاختلاف.

والدليل الذي يقنعني بصدق الدين هو أن عقولاً مثالية منا ـ بعد أن تركت الدين ـ قد أخذت تهذي بكلمات لا حقائق وراءها، وتعمه في تيه الظلام؛ ذلك أن الإنسان بعد أن يفقد أساس [الدين] لا يجد أساساً آخر لأفكاره. والأسماء التي تأتي في قوائم المعارضين أكثرها من عقولنا الكبيرة، ولكنهم بعد ما تخلوا عن الدين راحوا يكتبون ضروباً من اللغو غايةً في الإهمال والتمزق، حتى إنني أتحير ـ أحياناً ـ فلا أفهم كيف صدرت هذه الكلمات عن قلم رجل من العلماء؟.. وإن السجل الذي أنتجه هؤلاء ليشتمل خرافات وآراء متناقضة، واعترافات بجهل الحقيقة، كما يشتمل على أدلة أشبه بالسفسطة. فبطولة هؤلاء تكمن في أنهم أغمضوا أعينهم عن الحقائق الظاهرة، وشادوا قناطر خيالية من الادعاء، كما تتمثل في استدلالهم بالشاذ من الأمور. وذلك من سمات القضايا الباطلة. أما القضايا الصحيحة فإنها تقوم على أسس علمية ثابتة، لا على الشاذّةِ منها.

❖ ❖ ❖

وتتجلى حقيقة الدين وسفسطة قضية المعارضين أكثر من ذلك حين نطالع صورة الحياة الإنسانية في ضوء الدين، إنها صورة جميلة لطيفة، تتوافق مع أفكار الإنسان السامية، كما يتوافق الكون المادي مع القوانين الرياضية، بعكس تلك الصورة التي يرسمها المعارضون، فهي صورة جد قبيحة، وهي لا تتفق أبداً مع الذهن الإنساني، وانظر إلى ما يقوله برتراند رسل:

«الإنسان وليد عوامل ليست بذات أهداف، إن بدأه ونشوءه، وأمانيه ومخاوفه، وحبه وعقائده، كلها جاءت نتيجة ترتيب رياضي اتفاقي في نظام الذرة، والقبر ينهى حياة الإنسان. ولا تستطيع أية قوة إحياءه مرة أخرى. إن هذه المجهودات الطويلة، والتضحيات، والأفكار الجميلة، والبطولات العبقرية، كلها سوف تدفن إلى الأبد مع فناء النظام الشمسي. إن الكفاح الإنساني كله سوف يدفن حتماً مع الأرض تحت أنقاض الكون. ولو لم تكن هذه الأفكار قطعية فإنها أقرب ما تكون إلى الحقيقة، حتى إن أية فلسفة تحاول إنكارها ستلقى فناءها تلقائياً»[1].

ويكاد أن يكون هذا الاقتباسُ خلاصةَ الفكر المادي. فالكون في ضوء هذا الفكر المادي ـ يكاد يفقد كل أهدافه، ولا يبقى غير الظلام الحالك؛ الظلام الذي تتلاشى فيه معايير الخير والشر، حتى إن إبادة الناس بالقنابل لا تعد ظلماً، لأنهم سوف يلقون حتفهم على أية حال يوماً ما، أما الفكر الديني فهو فكر الضوء والأمل؛ الموت والحياة مرتبطان فيه بأهداف معينة، وكل القيم والأفكار الإنسانية السامية تجد لها مكاناً فيه. وإذا كان بعض العلماء، بمجرد تصديق القوانين الرياضية لأفكاره، يطمئن إلى أنه توصل إلى الحقيقة، فإنَّ تصديق العقل الإنساني للفكر الديني دليل قطعي على أنه هو الحقيقة التي طالما بحثت عنها الفطرة الإنسانية، وعندئذ لا نجد أساساً واقعياً لإنكار قيمة الفكر الديني، هذا هو «المقياس» العلمي الذي يشير إليه الرياضي الأمريكي البروفسور «ارل تشستر ريكس» قائلاً:

«إنني أستخدم في أبحاثي ذلك المقياس العلمي المسلم، الذي يستخدم في ترجيح إحدى فكرتين مختلفتين أو أكثر، عن حقيقة واحدة. وهو المقياس الذي

---

(1) Limitations of Science, p. 133.

نرجح ـ بناء عليه ـ الفكرة التي تفسر المسائل المتنازع فيها بطريقة أكثر بساطة وسهولة. لقد استخدم العلماء هذا المقياس لاختيار إحدى نظريتي بطليموس وكوبرنيك: كانت الأولى تزعم أن الأرض هي مركز النظام الشمسي، على حين أكدت الثانية أن النظام الشمسي هو مركز الأرض. وكانت نظرية بطليموس غاية في التعقيد حتى رفضها العلماء»[1].

ولا بأس من الاعتراف بأن هذه الأدلة لن تقنع بعض الناس، فإن أبواب عقولهم المادية موصدة دون أي كلام ـ مهما يكن علمياً ـ عن الإله أوالدين. ومن المؤكد أن موقفهم هذا ليس لأن استدلالنا ضعيف، وإنما هو راجع إلى تعصبهم المقيت ضد الأفكار الدينية، ولقد صدق عالم بريطانيا العظيم سير جيمس جينز ـ الذي يعتبر ولا شك أعظم علماء العصر الحديث ـ حيث قال في كتابه الشهير (عالم الأسرار):

«إن في عقولنا الجديدة تعصباً يرجح التفسير المادي للحقائق»[2].

وذكر (ويتكر شامبرز) في كتابه (الشهادة) Witness حادثاً كان من الممكن أن يصبح نقطة تحول في حياته. ذكر أنه بينما كان ينظر إلى ابنته الصغيرة استلفتت أذناها نظره، فأخذ يفكر في أنه من المستحيل أن يوجد شيء معقد ودقيق، كهذه الأذن، بمحض اتفاق، بل لابد أنه وجد نتيجة إرادة مدبرة، لكن (ويتكر شامبرز) طرد هذه الوسوسة عن قلبه، حتى لا يضطر أن يؤمن ـ منطقياً ـ بالذات التي أرادت فدبرت، لأن ذهنه لم يكن على استعداد لتقبل هذه الفكرة الأخيرة.

ويقول الأستاذ الدكتور (تامس ديود باركس) بعد أن يذكر هذا الحادث:

«إنني أعرف عدداً كبيراً من أساتذتي في الجامعة، ومن رفقائي العلماء الذين تعرضوا مراراً لمثل هذه المشاعر، وهم يقومون بعمليات كيماوية وطبيعية في المعامل»[3].

---

(1) The Evidence of God, p. 179.

(2) Mysterious Universe, p. 189.

(3) The Evidence of God, pp. 73 - 74.

لقد أجمع علماء هذا العصر على صدق نظرية النشوء و الارتقاء. . . وقد بدأت هذه النظرية تسود فعلاً جميع فروع العلوم الحديثة، . فكل مشكلة تحتاج «إلهاً» في تفسيرها توضع مكانه هذه النظرية بغير تردد.

هذا جانب من النظرية، وأما الجانب الثاني - وهو الجانب المظلم منها - الذي يقرر (فكرة التطور العضوي) Organic Evolution الذي استنبطت منه فكرة الارتقاء، فقد بقي إلى يوم الناس هذا بلا براهين، وبلا أدلة علمية!! حتى قال كثير من العلماء: «إنهم لا يؤمنون بهذه النظرية، إلا لأنه لا يوجد أي بديل لها سوى الإيمان بالله مباشَرة».

وكتب سير آرثر كيث يقول:

«إن نظرية النشوء و الارتقاء غير ثابتة علمياً، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان، ونحن لا نؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو (الإيمان بالخلق الخاص المباشر)، وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه»[1]!!

❖ ❖ ❖

إنني أقر هنا بعجزي عن إقناع أولئك، الذين ينطوون على التعصب الأعمى للتفسير المادي، بحقية الدين. ولهذا التعصب جذور عميقة، كما يقول عالم أمريكي: «إن كون العقيدة الإلهية معقولة، وكون إنكار الإله سفسطة لا يكفي ليختار جانب العقيدة الإلهية. فالناس يظنون أن الإيمان بالله سوف يقضي على حريتهم، تلك الحرية العقلية التي استعبدت عقول العلماء، واستهوت قلوبهم، فأيَّةُ فكرة عن تحديد هذه الحرية مثيرة للوحشة عندهم»[2].

وبناء على هذا يدعي جوليان هكسلي أن فكرة النبوة «هي إظهار للتفوق بطريقة شاذة لا يمكن احتمالها»؛ إذ إن معنى الإيمان بنبيٍّ أن نؤمن بكلامه على أنه كلام الإله، ثم نمتثل - طوعاً أو كرهاً - لكل ما يأمر به.

---

(1) Islamic Thought, December, 1967.

(2) George H. Blount, The Evidence of God, p. 130.

ولكن إذا كان الإنسان مخلوقاً وليس خالقاً، عابداً وليس معبوداً، فكيف يستطيع أن يقضي على الحقائق بمجرد أفكار نبتت في عقله؟... إننا لا نستطيع أن نغير الحقائق، وإنما نستطيع أن نعترف ـ أو نؤمن بها ـ فحسب.

وإذا كنا نحب أن تكون عاقبتنا عاقبة النعامة، فأفضل خيار لنا أن نسلم بالحقيقة قبل أن تفوت الفرصة نهائياً. إن كفرنا لن يسيء إلى قضيتها، ولكن الخسران كله سوف يكون من حظنا في الآخرة.

obeikandl.com